سؤال لبعض الأطباء:

أين ذهبتم بالعمل الطوعي؟

،،استقبال حالات مرضية في العيادة، إجراء ثلاث عمليات جراحية، الالتقاء بعدد من مندوبي الشركات الدوائية والتواصل بخصوص الانتقال للعمل في المستشفى الخاص الجديد.. يلخص هذا البرنامج المصغر الطريقة التي يعيش بها بعض من الأطباء الذين حصلوا على شهرة وسط المجتمع وهو برنامج يكرر نفسه كل يوم مع القليل من التعديلات لكنه يخلو من أي لمسات إنسانية وخيرية فليس فيه وقت محدد لعمل طوعي في مساعدة مرضى هنا أو هناك عجزوا عن الحصول على خدمة صحية جيدة ويعانون من الآلام التي لا تنتهي..

استطلاع/صقر الصنيدي

حتى وإن اعترضت تلك الحالات المرضية طريقهم فإن لهم طرق عديدة بالهروب من الواجب الذي شرعه مؤسسوا مهنة الطب التي جاءت في البداية كعمل طوعي ليس عليه أي أجر وقضى العديد من الأطباء القدامى حياتهم في الترحال من بلد إلى آخر لمساعدة المرضى والتخفيف عنهم دون الحصول على أي مقابل، ونحن لا نطلب منهم السير في تلك الخطى فقد تغيرت الحياة وأصبح لها تعقيدات تقتضي حصول الطبيب على ما يمكنه من حياة كريمة تكفل له ولأبنائه المستقبل، ولكن هذا لا يعني أن تتحول المهنة الإنسانية إلى مصدر رئيسي للاستثمار والتجارة التوسعية على حساب البسطاء ممن يبيعون كل ما يملكون مقابل الحصول على القليل مما افتقدوا من صحتهم.

يتذكر الجيل الذي سبقنا إلى الحياة »صاحبة الكشافة« وعندما يفتحون باب الحديث عنها فإن أحداً لا يقدر على إغلاقه، كل شيء قامت به جميل، كلماتها ما زالت تدور بينهم ويحاولون إيصالها إلينا وصاحبة الكشافة هي الطبيبة الفرنسية كلوديا فايان والكشافة هي أول جهاز دخل اليمن وتحديداً إلى المستشفى الجمهوري بتعز للكشف عن الآلام التي تسرى في أجساد اليمنيين ويحاولون تجاهلها حتى تبين الكشافة أنهم يعانون- ولم يكونوا يجادلون في النتائج التي تطلعهم عليها كلوديا التي غادرت الحياة منذ أشهر في موطنها فرنسا بعد أن قضت جل عمرها في خدمة الشعب البعيد الذي يسكن العربية السعيدة ويعاني تعدد الأمراض وتنوعها - حين تتوقف الكشافة عن العمل بسبب عطل ما تبحر كلوديا نحو الحبشة لإحضار قطع الغيار وتصلح الخلل بنفس اليد التي تعالج بها المرضى، يتذكرها كل من رآها ويحاول جاهداً رسم تلك الابتسامة التي لا تفارقها وتلك السعادة التي تغمرها حين تعود الكشافة للعمل مجدداً..

عندما أصبح القاضي عبدالرحمن الأرياني رئيساً قابلها وأمر بزيادة راتبها إلى ثلاثة أضعاف لكنها طلبت منه أن يساوي بينها وبين زملائها اليمنيين وأن لا يميزها مالياً عنهم، انبهر الرئيس المرحوم بذلك التصرف وها نحن ننبهر أيضاً لأننا لم نعد نرى الطبيب الذي يفرح لتشافي مريضه بل ربما يصل الحال بالبعض إلى تمني عدم استغناء المريض عنه حتى يعود ويكرر الزيارات والدفع، على العكس من تلك الفرنسية التي لم تنم ليلة متواصلة في تعز حيث كان الجميع يطرقون باب سكنها حين يباغتهم الألم فتقطع نومها وتبتسم وهي تستأذن مريضها أن يمنحها لحظة كي تتجهز للخروج كانت تقول (الطب عمل طوعي إنساني لا يرتبط بساعات محددة).

يروي أحد المرضى قصة إخراجه من داخل غرفة العمليات في مستشفى الثورة منذ أشهر قليلة حين قال للطبيب الذي سيجري له العملية «الجلسة بصنعاء خسارة وأنا لي شهر انتظركم»..

غضب الطبيب ورد عليه بقسوة «والآن زيد انتظر» ثم أنزل المريض من سرير العملية ونزع عنه الملبس الخاص بالعمليات وطالب منه مغادرة المستشفى لأنه أغضب الطبيب الذي يجري له العملية مجاناً. فيما بعد أوضح الطبيب لزملائه الذين انتقدوا تصرفه أن المريض ليس متأدباً بما فيه الكفاية وأن المفروض أن يبقى ساكتاً خاصة وأن العملية مجانية وأن لا ينتقد بقاءه في العاصمة وطول انتظاره للدور الذي حصل عليه والتأخير .

أحياناً العتاب

الكثير من المرضى الذين يحظون بفرصة إجراء عملية مجانية في مستشفى عام ينالهم الكثير من الإساءة وأحياناً العتاب بسبب عدم الدفع لنسبة الطبيب وخلال إجراء العملية يتعرضون للانتقادات التي عليهم أن يتقبلوها بصدر رحب وابتسامة رضا، ولم ندر إذا ما كان هناك من الأطباء من يقوم بالتقصير بعمله الجراحي ويتجاوز الكثير من ما يجب عليه إصلاحه في جسد المريض بسبب الاستعجال وحب التوجه إلى عملية فيها مقابل مالي مجز.

ويتذكر فؤاد الحمزي الكلمة التي قالها طبيب أجرى لخاله عملية جراحية حين ذهبوا إليه لمراجعته والشكوى من ما يعتقدون أنه خلل في العملية ووجود أضرار لم تكن موجودة.. رد عليهم الطبيب بذلك المثل القديم «قد هو بلاش قال له طلعه الميزان» ويذكر هذا المثل عندما يحصل شخص ما على شيء مجاناً ثم يطلب معرفة وزنه، لكنه لا ينطبق على مهنة الطب الإنسانية ويقول فؤاد إن خاله بالفعل تأثر وطلب الخروج من المستشفى والبحث عن أي طبيب آخر للمعالجة .

أطباء متطوعون

بالمقابل هناك أطباء يفضلون عملهم الطوعي الإنساني على واجباتهم المادية التي يحصلون على مقابل منها وأصبحوا يخصصون يوماً لعلاج المرضى غير القادرين على الدفع وهو صنف قليل بين الأطباء ويعيد الأمل إلى البسطاء فالدكتور محمد الكمالي خصص يوم الاثنين من كل أسبوع في عيادته للعمل المجاني والكشف على المرضى غير القادرين على الدفع ولديه قناعة أن هذه الفكرة يجب أن تسرى لدى جميع الأطباء حتى يحصل غير القادرين على الدفع على فرصة لمعرفة مرضهم والعلاج.

ويقول الدكتور محمد الكمالي : إن المجتمعات المتحضرة تمارس هذا الدور بصورة طبيعية ويقوم الأطباء بالأعمال الطوعية لسنوات ويذهبون إلى مناطق عديدة لأجل عملهم التطوعي ويدفعون من أموالهم الخاصة تكاليف الوصول إلى المرضى ومساعدتهم ويجعلهم هذا يحسون بالسعادة والارتياح الحقيقي حيث يشعرون أنهم جزء فعال في المجتمع ويقدمون واجبهم الإنساني بصورة جيدة.

ويشير الكمالي إلى ضرورة قيام الشركات الدوائية بإكمال مشوار الأطباء وذلك بصرف العلاجات الأساسية للمرضى غير قادرين على الشراء والذي قد يفقد حياته بسبب عدم قدرته على شراء العلاج المناسب والصحيح، كما أن من واجبات المجتمع أن يتعامل بالصدق وأن لا يصبح الجميع غير قادرين على الشراء إذا ما علموا أن هناك من سيساعدهم، فمن لديه القدرة على الشراء لا يفترض به منافسة غير القادرين ومحاولة الحصول على حق غيره..

الجمعيات المختصة

ويرى الدكتور/مطهر الحيدري أن وجود الجمعيات المختصة بمساعدة المرضى هو الكفيل بتقديم وتنظيم أكبر قدر من العمل الطوعي، وحث الأطباء على تخصيص بعض من جهدهم ووقتهم للعمل الخيري وإيصاله إلى الفئات المستحقة فعلاً.

ويضيف أن كل الجمعيات التي تخصصت بفئة معينة من المرضى كمرضى السكري أو غيره من الأمراض تمكنت من تقديم المساعدة والوصول إلى المستحقين ابتداءً برصد المرض وتحديد جغرافيته وطرق توسعه وصولاً إلى التوعية بأضراره وطرق مواجهته وكل عمل مبني على أسس مؤسسية لا بد وأن يلقى النجاح والتعاون والتحمس من الآخرين بينما الأعمال الفردية وإن كانت جيدة ونافعة إلا أنها تفتقد لعامل الاستمرارية والتحفز، فالطبيب عندما يقوم بعمل طوعي فردي لا يشكر عليه ولا يجد الحافز المعنوي عليه لا يتحفز للقيام به مجدداً على العكس عندما يجد التحفيز والتشجيع كما أنه وبصفة فردية قد يقدم العون في المكان الذي لا يحتاجه فعلاً بينما الذين يحتاجون لهذه الخدمة مجهولون وغير قادرين على الوصول إلى الطبيب الذي يحتاجون إلى عمله الإنساني..

- إخراج مريض من غرفة العمليات بسبب كلمة لم تعجب الطبيب
- أطباء يعاملون المرضى الذين لا يمتلكون المال بقسوة